الخلفاء الأمويون من افتتاحياتهم ووصاياهم

الفرع المرواني

للدكتور
حامد غنيم أبو سعيد

١ - الفرع المرواني :

لم يترك يزيد بن معاوية وصية لابنه الذي عهد إليه بالخلافة من بعده، ولا لأبناء الأسرة الأموية، ولا للأمة الإسلامية. ويبدو أنه لم يكن يرى أن الموت سيداهمه وهو لم يزل بعد في سن الشباب، ومن ثم فإنه لم يلتفت إلى هذه الناحية كما التفت إليها أبوه معاوية من قبل. أو أنه لم يجد شيئاً يقوله في وصية. فهو مجرد من التجارب والخبرات التي يتحتم عليه أن يبرزها للأجيال اللاحقة. كما أن رصيده في الرؤى السياسية لا يستأهل أي نوع من التسجيل.

على أية حال، فإنه بموت يزيد بن معاوية في منتصف شهر ربيع الأول سنة ٦٤ هـ يمكن القول بأن دولة الفرع السفياني قد سقطت أو انتهت. فقد تولى الخلافة بعده، وبعهد منه، ابنه معاوية الذي كان له من العمر آنذاك حوالي عشرين سنة، ولم يعمر معاوية الحفيد في منصبه سوى فترة وجيزة ارتفع بها البعض إلى ثلاثة أشهر ونزل بها آخرون إلى عشرين يوما⁽¹⁾، ومات معاوية الحفيد دون أن يعهد بالخلافة إلى أحد. بل يذكر عنه أنه قال بخصوص هذا الموضوع⁽²⁾:

«..... أما بعد فإني ضعفت عن أمركم فابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر فلم أجده. فابتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم أجدهم. فأنتم أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتم».

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن التاريخ سجل لعبدالله بن الزبير أنه لم يعلن البيعة ليزيد، وذلك كما توقع معاوية في وصيته، وكان عبدالله بن الزبير يرى في الخلافة أن تكون شورى بين الأمة، وبعد وفاة يزيد أعلن ابن الزبير نفسه خليفة⁽³⁾، وبدأ حينذاك وكأن الخلافة الإسلامية قد خرجت عن الأسرة الأموية، وأن مركز الخلافة قد انتقل من دمشق وعاد إلى الحجاز من جديد. نعم في شهر رجب من سنة ٦٤ هـ تمت البيعة في مكة لعبدالله بن الزبير بالخلافة، ومن ثم أخذ نفوذه في الاتساع حتى شمل معظم أقاليم الدولة الإسلامية بما فيها بلاد الشام نفسها⁽⁴⁾.

هذا هو المسار الذي كانت تتحرك فيه التطورات خلال منتصف سنة ٦٤ هـ، ولكن، وفي منتصف شهر ذي القعدة من السنة نفسها، أخذت تظهر بوادر تحوّل في مسار التاريخ الإسلامي، وكانت الخطوة الأولى في هذا التحول بيعة أنصار الدولة

---

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء جـ٤ ص ١٣٩.

(٢) ابن الأثير جـ٤ ص ١٣٠، وانظر أيضاً ابن كثير، جـ٨ ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨.

(٣) تاريخ خليفة بن خياط جـ١ ص ٢٥٣.

(٤) المصدر السابق جـ١ ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣، ٢٤٥.

الأموية لمروان بن الحكم بالخلافة، وهذه البيعة تعتبر بداية تأسيس دولة الفرع المرواني. وقد سجل التاريخ لمروان أنه عقب الاستيلاء على مصر(٥) استعمل ابنه عبد العزيز عليها، وقال له موصياً، حين ودعه(٦):

«أرسل حكيماً ولا توصه، أي بني انظر إلى عما لك فإن كان لهم عندك حق غدوة فلا تؤخره إلى عشية، وإن كان لهم عشية فلا تؤخره إلى غدوة، وأعطهم حقوقهم عند محلها، تستوجب بذلك الطاعة منهم.

وإياك أن يظهر لرعيتك منك كذب؛ فإنهم إن ظهر لهم منك كذب لم يصدقوك في الحق، واستشر جلساءك وأهل العلم، فإن لم يستبن لك فاكتب إليَّ يأتك رأيي فيه إن شاء الله تعالى.

وإن كان بك غضب على أحد من رعيتك فلا تؤاخذه به عند سورة الغضب، واحبس عنه عقوبتك حتى يسكن غضبك، ثم يكون منك ما يكون وأنت ساكن الغضب منطفئ الجمرة، فإن أول من جعل السجن كان حليماً ذا أناة.

ثم انظر إلى أهل الحسب والدين فليكونوا أصحابك وجلساءك، ثم أعرف منازلهم منك على غيرهم، على غير استرسال ولا انقباض. أقول هذا وأستخلف الله عليك».

عمَّر مروان بن الحكم بصفته حاكماً للشام ثم الشام ومصر حوالي تسعة أشهر. ثم خلفه بعهد منه ابنه عبد الملك الذي يراه الدارسون بحق مؤسس الدولة المروانية. أو المؤسس الثاني للدولة الأموية.

ويبدو أن عبد الملك لم يكن يرى في نفسه. إبان السنوات الأولى من عهده. أنه خليفة. بل فقط مجرد منافس لعبدالله بن الزبير. غير أن هذه الموازين أخذت تتغير لصالح عبد الملك. وأسفر الصراع في النهاية عن انتصار زعيم الأسرة الأموية ومقتل

---

(٥) استولى مروان على مصر في أوائل جمادى الأولى سنة ٦٥هـ وخرج منها في بداية رجب من نفس العام.

(٦) ابن عبد ربه، العقد الفريد جـ١ ص ٤٩.

عبدالله بن الزبير في سنة ٧٣هـ.

ويعتبر عام ٧٣هـ شبيهاً بعام ٤١هـ، أي عام الجماعة. ففي عام ٧٣ انتهى الانقسام الذي ساد العالم الإسلامي، ورسم تطوراته فترة تزيد على تسعة أعوام. ويبدو أنه بمقتل عبدالله بن الزبير اعتبر عبد الملك نفسه خليفة للمسلمين. وإذا دقق الباحث في التطورات التي انتهت بانفراد عبد الملك بن مروان بالخلافة يجد تشابهاً أو تقارباً كبيراً بينها وبين تلك التطورات التي انتهت بانفراد معاوية بن أبي سفيان بالخلافة في سنة ٤١هـ.

٢ ـ افتتاحية عبد الملك:

في إطار الزاوية التي نحن بصدد دراستها يبدو أن عبد الملك كان يعمد إلى محاكاة أو تقليد معاوية في كثير من الأمور. فقد سجل التاريخ لعبد الملك افتتاحية ووصية أو مجموعة من الوصايا. وهذا أمر طبيعي، ولكن الذي يستلفت الانتباه أن عبد الملك على ما يبدو أراد أن يحاكي معاوية في كثير من الجزئيات ذات العلاقة بالافتتاحية. فقد وقت معاوية افتتاحيته بعد فترة من انفراده بالخلافة وكذلك فعل عبد الملك، وألقى معاوية خطبته الافتتاحية على المنبر في المسجد النبوي، وكذلك فعل عبد الملك، وجاء إلقاء معاوية لافتتاحيته عقب أدائه لفريضة الحج، والشيء نفسه حدث مع عبد الملك بن مروان.

ألقى عبد الملك خطبته الافتتاحية عقب موسم حج سنة ٧٥هـ، وفيها قال بعد حمد الله والثناء عليه(٧):

«أما بعد فإنه كان من قبلي من الخلفاء يأكلون من المال ويوكلون، وإني والله لا أداوي أدواء هذه الأمة إلا بالسيف، ولست بالخليفة المستضعف ـ يعني عثمان ـ ولا الخليفة المداهن ـ يعني معاوية ـ ولا الخليفة المأفون ـ يعني يزيد بن معاوية.

---

(٧) ابن كثير جـ ٩ ص ٦٤.

أيها الناس إنا نحتمل منكم كل الغرمة ما لم يكن عقد راية أو وثوب على منبر، هذا عمرو بن سعيد حقه حقه، قرابته وابنه، قال برأسه هكذا فقلنا بسيفنا هكذا، وإن الجامعة التي خلعها من عنقه عندي، وقد أعطيت الله عهداً أن لا أضعها في رأس أحد إلا أخرجها الصعداء».

وفيها يقول أيضاً(٨) :

«ألا وإني لا أداوي هذه الأمة إلا بالسيف حتى تستقيم لي قناتكم، وإنكم تحفظوننا أعمال المهاجرين الأولين ولا تعملون مثل أعمالهم، وإنكم تأمروننا بتقوى الله وتنسون ذلك من أنفسكم، والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه».

ولكي نعرف الجو العام الذي ألقيت فيه هذه الخطبة يلزم أن نشير إلى أن عبد الملك تولى الأمر عقب وفاة أبيه مروان في رمضان سنة ٦٥ هـ، وكانت منطقة نفوذه آنذاك تشمل فقط الشام ومصر، على حين كان نفوذ عبدالله بن الزبير مبسوطاً على بقية أنحاء الدولة الإسلامية، على الحجاز واليمن والعراق وخراسان(٩). ومع مرور الوقت أخذ ميزان القوى بتغير بالتدريج لصالح عبد الملك بن مروان، كما أخذ نفوذه يحل محل نفوذ عبدالله بن الزبير في البلدان التي كانت موالية للأخير، ومن أبرز الانتصارات التي حققها عبد الملك على حساب نفوذ عبدالله بن الزبير انتزاع العراق سنة ٧٢، والسيطرة على مكة وعبدالله بن الزبير في السنة التالية.

وهذا يعني أن الحجاز، بحاضرتيه مكة والمدينة، كان يشكل مركز المعارضة الأساسي للدولة الأموية ولخلافة عبد الملك بن مروان، وقد اندحرت معارضة الحجاز وانتصر عبد الملك عليها بقوة السلاح، وأصبح انفراده بالخلافة أمراً واقعاً، تماماً كما حدث بالنسبة لانفراد معاوية بالخلافة في سنة ٤١ هـ، ولم يعد أمام زعماء الحجاز إلا التسليم بالأمر الواقع والرضوخ لخلافة عبد الملك، والقبول باستمرار زعامة العالم الإسلامي في الأسرة

---

(٨) هذا النص منقول من ابن الأثير جـ٤ ص ٣٩١ ـ ٣٩٢.

(٩) الذهبي، سير أعلام النبلاء جـ٣ ص ٣٦٤، ٣٧٣.

الأموية. أو بكون دمشق حاضرة الدولة الإسلامية.

هذا هو الجو العام الذي ألقيت فيه هذه الخطبة. وبالتالي فإن الوعيد والتهديد هما العنصران البارزان فيها. وفي إطار التفصيل يستطيع الباحث أن يقول إن هذه الافتتاحية تتكون من ثلاثة أقسام.

في القسم الأول أكد عبد الملك أن العلاج الوحيد للأمراض السياسية التي تصيب هذه الأمة وتسبب لها التمزق والانقسام ـ هذا العلاج لا يأتي إلا عن طريق القوة والسيف. وأنه قادر على استعمال السيف متى تطلب الأمر ذلك. وكأني به يريد أن يقول لأهل الحجاز:

«إنكم أكثر الناس معرفة بقوتي وسيفي. ويشهد بذلك الضحايا الكثيرون الذين ذهبوا وقوداً للصراع الطويل والدامي الذي دار بيني وبين عبدالله بن الزبير».

وقد أبرز عبد الملك أنه نمط جديد من الخلفاء. نمط يختلف تماماً عن ثلاثة من الخلفاء السابقين. عثمان ومعاوية ويزيد بن معاوية. وذلك لأن كل واحد من هؤلاء كانت تغلب عليه إحدى السمات السلبية والتي كان لها تأثيرها في تشجيع البعض. وبخاصة أهل الحجاز. على الثورة ورفع راية العصيان. فعثمان. رضي الله عنه. اتسم بالضعف والاستكانة. وتمثلت نقطة الضعف الخاصة بمعاوية في انتهاجه سياسة المداهنة والقبول بأنصاف الحلول. أما يزيد فإنه لم يكن يتحلى بشيء من التعقل والحكمة.

وإذا أخذنا بمنطق المخالفة فإن عبد الملك يريد أن يقول لأهل الحجاز وبصراحة إنه ليس كواحد من هؤلاء. بل هو خليفة قوى يتحلى بمضاء العزيمة والحسم في الأمور. وفوق كل هذا فإنه يعالج المشكلات والقضايا التي تواجه بتدبر وحكمة شأن أصحاب العقول الواعية والتجارب المثمرة.

ويمكن للباحث أن يتفق مع عبد الملك في اعتبار نفسه خليفة لا يعاني من أي من نقاط الضعف المشار إليها. ويمكن أيضاً أن يتفق معه فيما وصم به يزيد بن معاوية. وحتى

في صفة الضعف التي ألصقها بالخليفة عثمان إذا كان يحصر ذلك في السنوات الأخيرة من خلافته. ولكن ما لا يمكن للباحث أن يقبله هو انتقاد عبد الملك للسياسة التي كان يسير عليها معاوية، ووصفه إياها بالمداهنة للمناقشة. فلماذا لا تكون سياسة معاوية نوعاً من المرونة والرؤية العميقة والبعيدة في فهم مشكلات العصر والمجتمع الذي عاش فيه، ويمكن لكل هذه الجوانب أن تجمعها صفة واحدة كثيراً ما اتصف بها معاوية من قبل أناس أبعد ما يكونون عن محاباة معاوية. وها هو ذا عمر بن الخطاب ينسب إليه أنه قال عن معاوية(١٠).

«تعجبون من دهاء هرقل وكسرى وتدعون معاوية؟!

ويقول عنه واحد من أكبر منافسية ومنتقديه هو عبدالله بن الزبير(١١):

«والله إن كنا لنفرقه فيتفارق لنا، وما الليث الحرب على براثنه بأجرأ منه، وإن كنا لنخدعه، وما ابن ليلة من أهل الأرض بأدهى منه، فيتخادع لنا».

على أية حال، فإن عبد الملك في القسم الثاني من افتتاحيته بيَّن لمستمعيه التصرفات التي لا يمكن له أن يتسامح إزاءها وهي تتركز في أمر واحد فقط هي الثورة ضد دولته والانشقاق على خلافته. وقد عبر عن ذلك بقوله:

«إنا نحتمل منكم كل الغرمة ما لم يكن عقد راية أو وثوب على منبر».

وما عدا ذلك فهو في نظر عبد الملك من الأمور التي لا يأبه بها. وحول هذه الجزئية قدم عبد الملك لمستمعيه مثلاً حياً من مواقفه الصارمة في مواجهة كل من تسول له نفسه أن ينتقص من سلطان عبد الملك، والمثل هو عمرو بن سعيد بن العاص، أحد أركان الدولة المروانية. فقد أقدم عمرو في سنة ٧٠ هـ على خلع عبد الملك، فما كان من الأخير إلا أن قتله دون مراعاة لصلة القرابة أو لدوره الكبير في مساندة الدولة الأموية، وقد

---

(١٠) الذهبي، سير أعلام النبلاء جـ٣ ص ١٣٤ ـ ١٣٥.

(١١) الزبير بن بكار، الأخبار الموفقيات ص ٥١٦.

حفظ التاريخ لعبد الملك أنه قال بعد أن تخلص من عمرو(١٢):

«لو أعلم أن تبقى وتصلح قرابتي لفديتك بدم النواظر. ولكنه قلما اجتمع فحلان في إبل إلا أخرج أحدهما صاحبه».

وفي القسم الثالث والأخير من الافتتاحية وجه عبد الملك لومه واستنكاره الشديدين إلى مستمعيه بسبب تناقضهم وتخبطهم بين القول والعمل وبين ما يطالبون الغير بفعله ولا يفعلونه هم. فمستمعوه يرددون دائماً أعمال المهاجرين الأولين ويتغنون بتلك الأيام الماضية، وهم أنفسهم بعيدون كل البعد عن الاقتداء بهم والسير على هداهم. ومستمعوه يحثون الغير على تقوى الله. ولا يلتزمون هم بالتقوى، وهنا يقترب عبد الملك من قوله تعالى:

«أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم».

وفي ختام الحديث عن افتتاحية عبد الملك يتضح لنا أن عبد الملك قد حاول الاقتداء بمعاوية في تحديد الوقت والمكان لإلقاء افتتاحيته كما أشرنا سلفاً. وذلك على ما يبدو لوجود تشابه كبير بين التطورات التي أدت بمعاوية إلى الانفراد بالخلافة. وبالتالي بداية تأسيس دولة الفرع السفياني، وتلك التطورات التي انتهت بعبد الملك إلى الانفراد بالخلافة ومن ثم بداية تأسيس دولة الفرع المرواني، بيد أنه يوجد بون شاسع بين محتويات افتتاحية معاوية وتلك التي ضمنها عبد الملك افتتاحيته. فافتتاحية معاوية تغلب عليها روح المصالحة بينه وبين أهل الحجاز. أما افتتاحية عبد الملك فتغلب عليها نغمة التحدي والمجابهة. وهذا هو الفرق الجوهري بين معاوية ومنهجه السياسي من ناحية. وعبد الملك وأسلوبه في الحكم والإدارة من ناحية ثانية.

٣ ـ وصايا عبد الملك:

سجل التاريخ لعبد الملك أنه قبيل وفاته تحدث بمجموعة من الأقوال تبدو للوهلة

---

(١٢) خليفة بن خياط جـ١ ص ٢٦٣.

الأولى وكأنها وصايا متعددة. على حين أن المتمعن فيها يرجح أنها وصية واحدة شاملة ضمت العديد من الوصايا الجزئية. وها هو ذا المسعودي(١٣) يحدثنا عن هذه الوصية فيقول: وقيل إن عبد الملك نظر إلى الوليد وهو يبكي عليه عند رأسه فقال: «يا هذا أحنين الحمامة. إذا أنا مت فشمر واتزر. والبس جلد نمر. وضع سيفك على عاتقك. فمن أبدى ذات نفسه لك فاضرب عنقه. ومن سكت مات بدائه».

ثم أقبل عبد الملك يذم الدنيا فقال:

«إن طويلك لقصير. وإن كثيرك لقليل وإن كنا فيك لفي غرور».

ثم أقبل على جميع ولده فقال:

«أوصيكم بتقوى الله فإنها عصمة باقية وجنة واقية. فالتقوى خير زاد. وأفضل في المعاد. وهي أحصن كهف.

وليعطف الكبير منكم على الصغير. وليعرف الصغير حق الكبير. مع سلامة الصدور. والأخذ بجميل الأمور. وإياكم والبغي والتحاسد فيهما هلك الملوك الماضون وذوو العز المكين.

يا بني أخوكم مسلمة نابكم الذي تفترون عنه. ومجنكم الذي تستجنون به. اصدروا عن رأيه. وأكرموا الحَجاج فإنه الذي وطأ لكم هذا الأمر(١٤). وكونوا أولاداً أبراراً وفي الحروب أحراراً وللمعروف مناراً».

«وضعوا معروفكم عند ذوي الأحساب؛ فإنهم أصون له وأشكر لما يؤتي إليهم منه.

---

(١٣) إلى جانب المسعودي حفظ لنا وصية عبد الملك العديد من المؤرخين من بينهم خليفة بن خياط (جـ١ ص ٢٧٠ ـ ٢٧١) وابن أعثم الكوفي (جـ٧ ص ٢٠١ ـ ٢٠٢). وابن الأثير (جـ٤ ص ٥١٧ ـ ٥١٨) وابن خلدون (جـ٣ ص ١٢٧ ـ ١٢٨) وابن كثير (جـ ٩ ص ٦٧).

(١٤) نص هذه الجزئية لدى ابن أعثم كالتالي: «وانظروا ابني مسلمة حفظه الله إذا قدم من أرض الروم. فاعرفوا له حق الجهاد في سبيل الله. وكذلك فاعرفوا لأخي محمد بن مروان حقه وسنه. وأكرموا الحجاج بن يوسف فإنه وطأ لكم البلاد. وأذل لكم العباد. وعقد لكم القناطر وداس لكم رقاب العرب».

وتمغدوا ذنوب أهل الذنوب فإن استقالوا فأقيلوا وإن عادوا فانتقموا(١٥).

من النص السابق يتضح لنا أن وصية عبد الملك في أيامه الأخيرة تتكون، بالنظر إلى من وجهت إليهم، من جزءين أساسيين، الجزء الأول موجه إلى ابنه وولي عهده الوليد، والجزء الثاني موجه إلى أولاده جميعاً.

والجزء الأول سياسي محض، وذلك لأن عبد الملك، على ما يبدو، كان يتخوف وقوع ثورات وحركات تمرد ضد ابنه الوليد، وخاصة من بعض الفئات التي كانت تناصب عبد الملك العداء، مثل الخوارج وغيرهم من أصحاب التطلعات السياسية، وفي مواجهة هذا الاحتمال كان عبد الملك حاسماً في وصيته لابنه وولي عهده، فقد أوصاه باستخدام القوة والعنف، بل وأقصى درجات القسوة مع كل من تسول له نفسه أن يرفع رأسه تحدياً للوليد:

«...... إذا أنامت فشمر واتزر والبس جلد نمر، وضع سيفك على عاتقك، فمن أبدى ذات نفسه لك فاضرب عنقه».

وإذا وضعنا هذا الجزء من وصية عبد الملك إلى جانب افتتاحيته فإننا لا نجد اختلافاً يذكر بين المضمونين والموقفين، فعبد الملك الخليفة المباهي بانتصاره على عبدالله بن الزبير هو نفسه عبد الملك الرجل المتهالك والذي يقف على حافة القبر، مضمون كلامه من على منبر المسجد النبوي في سنة ٧٥هـ. ذات المضمون الذي قدمته هذه الفقرة من الوصية في سنة ٨٦هـ. عبد الملك في كلتا الحالتين يدرك إدراكاً تاماً أن القوة هي الوسيلة الوحيدة لتصفية الفئات المناهضة، وذلك من خلال تجاربه الناجحة في مواجهة عبدالله بن الزبير من ناحية، والخوارج من ناحية ثانية، وهو لذلك يوصي ابنه بانتهاج السياسة ذاتها، سياسة البطش والقوة مع الأعداء والمناهضين.

والجزء الثاني من الوصية يتكون من قسمين، القسم الأول ديني خالص، والقسم

---

(١٥) هذه الفقرة من الوصية منقولة عن ابن الأثير جـ٤ ص ٥١٨.

الثاني سياسي بواجهة اجتماعية. في القسم الديني ذم عبد الملك الدنيا ثم أوصى أولاده بتقوى الله، وهذا القسم من الوصية يتفق تماماً مع الظرف الذي كان يواجهه عبد الملك في تلك اللحظات، وهو ظرف الموت.

وفي القسم الثاني برزت قضية المستقبل المجهول والذي كان عبد الملك يتخوف منه على أولاده، من حيث علاقاتهم فيما بينهم وعلاقاتهم مع كبار رجال الدولة، وانعكاس هذه العلاقات على الدولة المروانية، فحول العلاقات داخل أسرة عبد الملك أوصى الرجل أولاده بالتضامن والتآلف والمحبة.

« ... وليعطف الكبير منكم على الصغير، وليعرف الصغير حق الكبير».

وتبدو وصية عبد الملك في هذه الناحية ذات طبيعة اجتماعية، ولكنها في الحقيقة وصية سياسية من الدرجة الأولى، فعبد الملك كان يدرك جيداً أنه إذا ساءت العلاقات بين أولاده وتسرب الانقسام إليهم فإن ذلك سيؤدي إلى ضعفهم وبالتالي سقوط دولتهم، وهذا ما أكدته التطورات بالفعل فإنه بعد وفاة ابنه هشام في سنة ١٢٤ هـ ساءت العلاقات بين ذرية عبد الملك وانقسموا على أنفسهم، وكان هذا الانقسام عاملاً أساسياً في ضعف الدولة وبالتالي سقوطها.

وعن العلاقات بين أولاد عبد الملك من ناحية وكبار رجال الدولة من ناحية ثانية أوصى عبد الملك بنيه باثنين أو قل بثلاثة، هم مسلمة بن عبد الملك ومحمد بن مروان والحجاج بن يوسف، وقد خص عبد الملك ابنه مسلمة بالذكر هنا إضافة إلى أنه متضمن في الجزء السابق من الوصية لأن مسلمة كان بعيداً عن دمشق في ذلك الوقت، كما أن مسلمة، كما يبدو من تاريخه، كان قد شق لنفسه طريقاً انفرد به عن الباقين من إخوته، ذلك هو طريق الجهاد في سبيل الله، وخاصة ضد دولة الروم، وأيضاً فإن مسلمة كان يتحلى بكل صفات الزعامة، وعنه يقول الذهبي(١٦) :

«كان أولى بالخلافة من سائر إخوته».

---

(١٦) سير أعلام النبلاء جـ٥ ص ٢٤١.

ولذلك كانت وصية عبد الملك لبنيه أن يصدروا عن رأيه في رواية، وأن يعرفوا له حق الجهاد في سبيل الله في رواية ثانية(١٧).

وأوصى عبد الملك بنيه بعمهم محمد بن مروان أن يعرفوا له حقه وسنه، وذلك لأن عبد الملك كان يدرك بحسه السياسي الدقة البالغة التي تتحرك في إطارها العلاقات عادة بين جيلين من أسرة واحدة، جيل له حق السبق الزمني ولكن ضاعت منه القوة السياسية، وجيل ـ مع تأخره الزمني ـ يمسك بكل مقاليد الأمور، هذا مع ملاحظة أن عبد الملك قد وجه ولاية العهد في بنيه، وكان الأحرى بها من وجهة نظر محمد بن مروان أن تكون من نصيبه هو، لأنه صنو عبد الملك، وتربطه بمروان نفس الرابطة التي تصل بين مروان وعبد الملك.

أما ثالث الثلاثة فهو الحجاج بن يوسف، وقد أوصى عبد الملك بنيه بإكرامه، وذلك لدوره الكبير في تثبيت أركان دولة عبد الملك، ، ولولا هذا الدور لكان من المرجح حدوث تغيير في مسار هذه الدولة.

ووصية عبد الملك بنيه بهؤلاء الثلاثة تتداخل فيها الصبغة الاجتماعية مع الصبغة السياسية، ولعل الأخيرة هي التي كانت تشغل بال عبد الملك، فهو لم يكن يريد لأبنائه أن يتهموا بالعقوق أو نكران الجميل كي لا تجد بعض الفئات الحانقة نقطة للطعن على الدولة والتأليب ضدها.

وختم عبد الملك وصيته بأن خص أولاده على أن يتعاملوا مع ذوي الأحساب بما يتفق وأحسابهم، وأن يفتحوا الأبواب أمام الذين يذنبوا في حق الدولة فإن أقلعوا قبل منهم، وإن عادوا إلى غيهم وفسادهم كان الانتقام جزاءهم.

وجلي أن وصايا عبد الملك لبنيه تلتقي مع وصايا معاوية لابنه يزيد في جانبين عامين، الجانب الديني فكلاهما أوصى بالتقوى والحث على مراقبة الله تعالى، وهذا أمر طبيعي من صحابي كمعاوية وتابعي كعبد الملك، وكلاهما يشغل منصب الخلافة. أرفع

---

(١٧) الرواية الأولى هي رواية المسعودي، والثانية رواية ابن أعثم الكوفي.

المناصب الإسلامية وأكثرها مهابة. والجانب الثاني هو الخاص بالتعامل مع أهل الشرف أو ذوي الأحساب، فكلاهما أوصى بأن يكون التعامل مع هذا الصنف من الناس منطلقاً من تقدير مكانتهم في المجتمع، وذلك لأن هذا المستوى من التعامل ستكون له نتائجه الإيجابية بالنسبة لكل من يزيد وأولاد عبد الملك.

وما عدا هذين الجانبين فإن وصايا كل من الرجلين انفردت بجزئيات خاصة، أملتها الظروف التي كانت تمر بها الدولة وقت وفاة كل منهما، والمشكلات التي كانت تلوح في الأفق في سنة ٦١ وسنة ٨٦هـ.

وأخيراً فإن وصايا كل من الرجلين تلتقي في الدلالة على شخصية كل منهما، وقد سبق لنا أن أبرزنا العديد من الرؤى المستقبلية لمعاوية من خلال وصاياه. والتي أكدت عبقريته السياسية أو صفة الدهاء، وهو الأمر الذي اتفق عليه معاصرو معاوية من محايدين ومناهضين.

وعبد الملك هو الآخر كان عبقرية سياسية كبيرة، تشهد بذلك وصيته بجزئياتها المختلفة، ومن الناحية العملية فإن إنجازات عبد الملك على مدى عهده الذي تجاوز عشرين سنة تؤكد أنه رجل من بناة الدول وصناع التاريخ، أو كما يقول عنه الذهبي(١٨):

«كان من رجال الدهر ودهاة الرجال».

٤ ـ افتتاحية الوليد:

توفي عبد الملك في منتصف شوال سنة ٨٦هـ، وحل محله في الخلافة ابنه وولي عهده الوليد، وكان آنذاك قد ناهز الرابعة والثلاثين، وقد سجل له التاريخ أنه استهل عهده بافتتاحية عدد فيها أهم مناقب أبيه عبد الملك، ثم أشار بإيجاز شديد إلى السياسة التي سيسير عليها، وهي سياسة العنف ضد الخارجين على الطاعة والمنشقين على الجماعة.

---

(١٨) سير أعلام النبلاء جـ٤ ص ٢٤٩.

قال الوليد في افتتاحيته بعد أن حمد الله وأثنى عليه(١٩) :

«أيها الناس، إنه لا مقدم لما أخر الله، ولا مؤخر لما قدم الله، وقد كان من مضاء الله وسابق علمه، وما كتب على أنبيائه وحملة عرشه الموت، وقد صار إلى منازل الأبرار وليّ هذه الأمة بالذي يحق عليه لله من الشدة على المريب واللين لأهل الحق والفضل، وإقامة ما أقام الله من منار الإسلام وأعلامه من حج هذا البيت وغزو هذه الثغور وشن هذه الغارة على أعداء الله، فلم يكن عاجزاً ولا مفرطاً.

أيها الناس عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة فإن الشيطان مع الفرد.

أيها الناس من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذي فيه عيناه، ومن سكت مات بدائه».

وهذه الافتتاحية تتكون من ثلاثة أقسام ، في القسم الأول تكلم الوليد عن حدث الموت الذي نزل بأبيه، ثم قدم عدداً من مناقبه وأعماله، ويبدو على هذا القسم قدر من الإسهاب، وهو إسهاب مقبول تطلبه المقام.

والذي يسترعي الانتباه في هذا القسم العبارة الختامية له، وأعني بها قول الوليد عن أبيه: فلم يكن عاجزاً ولا مفرطاً، وهذه العبارة الموجزة تقدم صورة دقيقة للخليفة عبد الملك، فهو لم يكن بالخليفة العاجز على المستويين الداخلي والخراجي، فقد جابه الحركات المناوئة بكل مقدرة وكفاءة، وكان النجاح حليفه في كل المجابهات التي خاضتها الدولة. وعبد الملك أيضاً لم يكن بالخليفة المفرط في أي من حقوق الدولة الإسلامية سواء فيما يتصل بحقوق السيادة أو نطاق النفوذ الذي امتدت إليه الدولة في كثير من مناطق الحدود، ويكفي أن نشير إلى دوره في استقلال العملة الإسلامية وتعريب الدواوين، ويكفي أن نعرف أن حركة التوسع الكبير الذي شهدته الدولة الأموية في أكثر من ناحية إبان عهد ابنه الوليد قد تمت بفضل قوة الدفع التي توفرت للدولة في عهد عبد الملك.

---

(١٩) الطبري جـ٨ ص ١٤. وقد أورد افتتاحية الوليد كل من اليعقوبي (جـ٢ ص ٢٨٣، والمسعودي (مروج الذهب جـ٣ ص ١٧٠، وابن الأثير جـ٤ ص ٥٢٢ وابن خلدون جـ٣ ص ١٢٩.

وفي القسم الثاني دعا الوليد مستمعيه إلى الطاعة والتمسك بالجماعة، وهذه دعوة سياسية خالصة، هدف من ورائها الوليد إلى توحيد الكلمة تحت رايته كما كان عليه الحال تحت راية أبيه عبد الملك من قبل، وأبرز الوليد الفرق بين منطلق الجماعة ومنطلق الفرد، فطاعة أولى الأمر ولزوم الجماعة من القيم التي حث عليها الإسلام، أما منطلق الفرد أو الخروج على الجماعة فهو شيطان، وكان الشيطان للإنسان عدواً مبيناً، والفرق بين المنطلقين فرق ديني أراد به الوليد خدمة غاياته السياسية.

وبعد الدعوة إلى الجماعة، وفي القسم الثالث، حذر الوليد مستمعيه تحذيراً شديداً من الإقدام على أية محاولة تستهدف الخروج على الدولة أو التمرد ضد خلافته:

«..... من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذي فيه عيناه».

وهذا الجزء من افتتاحية الوليد تكرار للجزء الأول من وصية عبد الملك، وهو الجزء الذي وجه فيه حديثه للوليد قائلاً له:

«فمن أبدى ذات نفسه لك فاضرب عنقه».

وهذا يعني أن وصية عبد الملك وجدت من الوليد استجابة وتفهماً كاملين.

وإذا قارنا بين افتتاحية يزيد بن معاوية وافتتاحية الوليد بن عبد الملك فإنا نجد خطاً واضحاً يميز بينهما، ويجعل لكل من الافتتاحيتين طبيعتها الخاصة، فافتتاحية يزيد تفيد أنه لن يسير على سياسة أبيه، وهذا واضح من قوله:

«إن أبي كان يغزيكم البحر ولست حاملكم في البحر، وإنه كان يشتيكم بأرض الروم، فلست أشتي المسلمين في أرض العدو، وكان يخرج العطاء أثلاثاً وإني أجمعه لكم».

أما افتتاحية الوليد فإنها تؤكد عزمه على انتهاج السياسة التي كان يسير عليها أبوه، بل تكاد تنطق بأن سياسة الوليد ليست سوى استمرار لسياسة أبيه عبد الملك، كما يفهم الباحث من ترديد الوليد في افتتاحيته لنص العبارات التي جاءت في وصية عبد الملك.

وهذا الفرق الذي برز من الافتتاحية تدعمه التطورات التاريخية. فأعمال يزيد ومعالجاته للقضايا التي واجهته تؤكد أنه شخص مختلف في سياسته عن سياسة معاوية، إضافة إلى أنها تجزم بأن الابن لم يأخذ بما أوصاه به أبوه ولم يلتزم بشيء من توجيهاته.

وعلى الجانب الآخر نجد أن الوليد قد سار بالدولة الأموية في نفس المسار الذي رسمه لها أبوه، وأنه بدأ من حيث انتهى عبد الملك، وبالتالي كانت إنجازاته الرائعة في الميدانين الداخلي والخارجي، ويكفي أن نعرف أن جيوش الوليد قد وصلت في فتوحاتها إلى أواسط آسيا في الشمال الشرقي، وإلى قلب القارة الهندية في الجنوب الشرقي، وإلى مداخل جبال البرانس في القارة الأوربية، كل هذا تحقق في عهد الوليد على الرغم من أن خلافته تجاوزت تسعة أعوام بعدة شهور.

٥ ـ افتتاحية سليمان ووصيته :

توفي الوليد بن عبد الملك يوم السبت منتصف ربيع الأول، وقيل الآخر، سنة ٩٦ هـ، بعد أن أمضى في الخلافة حوالي تسعة أعوام وخمسة شهور، وكان عند وفاته في حوالي الخمسين من العمر(٢٠). وتولى الخلافة بعده بعهد من عبد الملك أخوه سليمان، وقد افتتح الخليفة الجديد عهده بأن صعد المنبر فحمد الله تعالى وأثنى عليه وصلى على رسوله. ثم قال(٢١) :

«الحمد لله الذي ما شاء صنع، وما شاء أعطى، وما شاء منع، وما شاء رفع، وما شاء وضع.

أيها الناس، إن الدنيا دار غرور وباطل وزينة وتقلب بأهلها، تضحك باكيها وتبكي ضاحكها، وتخيف آمنها وتؤمن خائفها، وتثري فقيرها وتفقر مثريها، ميالة بأهلها.

عباد الله، اتخذوا كتاب الله إماماً وارضوا به حكماً، واجعلوه لكم هادياً ودليلاً، فإنه ناسخ ما قبله ولا ينسخه ما بعده، واعلموا عباد الله أنه ينفي عنكم كيد الشيطان

---

(٢٠) خليفة بن خياط جـ١ ص ٣١٣ ـ ٣١٤. الذهبي. سير أعلام النبلاء جـ٤ ص ٣٤٨.

(٢١) المسعودي. مروج الذهب جـ٣ ص ١٧٤. وتوجد هذه الافتتاحية أيضاً لدى ابن كثير جـ٩ ص ١٧٩.

ومطامعه، كما يجلو ضوء الشمس الصبح إذا أسفر وإدبار الليل إذا عسعس».

وتغلب الصبغة الدينية على هذه الافتتاحية لدرجة أنها لم تترك مجالاً لأمر آخر، كما في الافتتاحيات السابقة، وسيطرة الصبغة الدينية على هذه الخطبة تنسجم مع الجو العام الذي خلفته وفاة الوليد، كما أنها تبرز أيضاً النزعة الدينية التي كان يتحلى بها سليمان. وإن دلت هذه الافتتاحية على شيء فإنما تدل على نية الخليفة سليمان في أن يتجه في قيادته للدولة الأموية اتجاهاً دينياً بدرجة أكبر مما كان عليه الحال في عهد أخيه الوليد.

وللحقيقة فإن النزعة الدينية لدى سليمان لم تقف عند مجرد النوايا، بل إنها برزت عملياً في عهده القصير، فقد سجل له التاريخ أنه في بداية عهده كتب إلى عماله[٢٢] :

«إن الصلاة كانت قد أميتت فأحيوها بوقتها».

كما أنه ألغى المظالم التي تخلفت من العهود السابقة[٢٣] ، كما أنه كان أكثر أولاد عبد الملك كراهية لسفك الدماء.

◦ ◦ ◦

وقد برزت النزعة الدينية لدى سليمان كأقوى ما يكون في الوصية التي تركها عند وفاته، فقد سجل التاريخ له أنه ترك وصية مكتوبة[٢٤] ، وهي وصية مطولة ومما جاء فيها:

«...... وإن ولي عهدي فيكم، وصاحب أمري بعد موتي في جندي ورعيتي وخاصتي وعامتي، وكل من استخلفني الله عليه واسترعاني النظر فيه الرجل الصالح عمر ابن عبد العزيز، ابن عمي، لما بلوت من باطن أمره وظاهره، ورجوت الله بذلك،

---

(٢٢) الذهبي. سير أعلام النبلاء جـ٥ ص ١١٢. وانظر أيضاً السيوطي. تاريخ الخلفاء ص ٢٢٥.

(٢٣) ابن الأثير جـ٥ ص ٣٧. الذهبي. سير أعلام النبلاء جـ٥ ص ١٢٥.

(٢٤) ابن قتيبة. الإمامة والسياسة جـ٢ ص ٨٠. القلقشندي. صبح الأعشى جـ٩ ص ٣٦٠.
ويوجد لدى ابن خلدون (جـ٣ ص ٧٤) وصية موجزة نصها: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من عبدالله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز. إني قد وليتك الخلافة بعدي. ومن بعدك يزيد بن عبد الملك. فاسمعوا وأطيعوا. واتقوا الله ولا تختلفوا فيطمع فيكم».

وأردت رضاه ورحمته إن شاء الله، ثم ليزيد بن عبد الملك من بعده، فإني ما رأيت منه إلا خيراً، ولا اطلعت له على مكروه.

وصغار ولدي وكبارهم إلى عمر، إذ رجوت ألا يألوهم رشداً وصلاحاً والله خليفتي عليهم وعلى جماعة المؤمنين والمسلمين وهو أرحم الراحمين، وأقرأ عليكم السلام ورحمة الله.

ومن أبى عهدي هذا وخالف أمري فالسيف، ورجوت ألا يخالفه أحد، ومن خالقه فهو ضال مضل يستعتب فإن أعتب وإلا فالسيف والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله القديم الإحسان».

وجلي من هذه الوصية أن سليمان قد ركز على الخطر الذي يمكن أن يحيط بالدولة الأموية نتيجة لشعور أبناء عبد الملك بالإحباط بسبب ابتعاد منصب الخلافة عنهم إلى ابن عمهم عمر بن عبد العزيز، ومن ثم كان حثه لكبار أهل بيته، وخاصة المتطلعين إلى الخلافة بالسمع والطاعة والتقوى، وهذه قيم دينية تشكل قاسماً مشتركاً في جميع وصايا الخلفاء السابقين، وقد أضاف سليمان إلى ذلك وصيته إياهم بعدم الاختلاف؛ كيلا تتفرق كلمتهم فيضعفون ويطمع فيهم الأعداء. وهذه وصايا سياسية استهدف من ورائها سليمان الحفاظ على الوحدة بين أبناء الأسرة المروانية، وهي الوحدة التي استهدفها عبد الملك أيضاً في وصيته.

والتعليق الختامي على سليمان يمكن إجماله في القول: بأن هذا الخليفة يقدم نموذجاً طيباً للالتقاء التام بين البداية والنهاية، وأيضاً للتجانس الكامل بين الأقوال والأعمال، فسليمان في افتتاحيته هو سليمان في وصيته، مجموعة من القيم الدينية البعيدة عن الرياء والمخادعة، وسليمان في حكمه وإدارته هو سليمان كما عبرت عنه كلمات افتتاحيته وأيضاً مضمون وصيته.

٦ - افتتاحيتا عمر بن عبد العزيز :

في صفر سنة ٩٩هـ توفي سليمان بن عبد الملك بعد خلافة استمرت حوالي أربعة

وثلاثين شهراً، وخلفه بعهد منه ابن عمه عمر بن عبد العزيز. وقد سجلت المصادر التاريخية اقتباسات متنوعة كل منها على اعتبار أنها خطبته الافتتاحية، الأمر الذي يعطي الانطباع بأن عمر قد ألقى العديد من الخطب في بداية عهده، ويمكن أن يفسر هذا التعدد بأن عمر افتتح عهده بخطبة طويلة، واختار كل مؤرخ من هذه الخطبة القسم الذي أعجبه أكثر من غيره، وقدمه على أساس أنه خطبة عمر الافتتاحية.

ويميل الباحث إلى تفسير آخر، هو أن عمر ألقى خطبتين كل منهما تعتبر افتتاحية، الخطبة الأولى ألقاها عقب البيعة الخاصة، وهي البيعة التي تمت مباشرة عقب قراءة وصية سليمان، وهي الوصية التي اتضح منها أنه عهد بالخلافة من بعده لعمر بن عبد العزيز، وكان المبايعون في هذه البيعة الخاصة هم كبار رجال البيت المرواني وكبار المسئولين في قصر الخلافة، وهذا ما يمكن فهمه من السياق الذي ذكره الذهبي في تقديمه لإحدى اقتباساته⁽٢٥⁾. ثم بعد ذلك بويع عمر بيعة عامة في المسجد من قبل عامة الناس في العاصمة الأموية دمشق، وعقب هذه البيعة ألقى عمر خطبته الثانية، والتي تعتبر أيضاً افتتاحية، والفارق الزمني بين الافتتاحيتين على الأرجح يوم أو بعض يوم.

ومهما يكن من أمر، فقد سجل التاريخ لعمر بن عبد العزيز أنه ألقى خطبة افتتاحية عقب البيعة الخاصة، وقد قال في هذه الخطبة بعد حمد الله والثناء عليه⁽٢٦⁾:

«أيها الناس إني لست بفارض ولكني منفذ، ولست بمبتدع ولكني متبع، وإن من حولكم من الأمصار إن أطاعوا كما أطعتم فأنا واليكم، وإن هم أبوا فلست لكم بوال».

ومما قاله عمر بن عبد العزيز في افتتاحيته هذه⁽٢٧⁾:

«إن الهارب من الإمام الظالم ليس بعاص، ولكن الإمام هو العاصي، ألا لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق».

---

(٢٥) سير أعلام النبلاء جـ٥ ص ١٢٦.

(٢٦) المصدر السابق. وتوجد هذه الفقرة لدى المسعودي (مروج الذهب جـ٣ ص ١٨٥) مع شيء من الحذف والإضافة. ويوجد هذا النص عند ابن كثير جـ٩ ص ١٩٩).

(٢٧) المسعودي. مروج الذهب جـ٣ ص ١٨٥.

من النظر في هذه الافتتاحية يتضح لنا أن عمر بن عبد العزيز قد ركز الحديث فيها على ثلاثة مبادئ أساسية تساعد في تشكيل الإطار العام للأسلوب الذي سيدير به الدولة الإسلامية.

المبدأ الأول وهو ما أكده عمر من أنه ليس مشرعاً، وأنه مجرد منفذ، وقد عبر عمر عن هذا المبدأ بقوله:

«إني لست بفارض ولكني منفذ، ولست بمبتدع ولكني متبع».

وإثارة هذا المبدأ يعني أن عمر بن عبد العزيز كان يدرك جيداً أن القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة يحتويان على كل القيم والأسس والتنظيمات العامة التي تتطلبها الدولة الإسلامية في الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها.

وهذا المبدأ من المبادئ الإسلامية الأصيلة التي ترسخت في عصر الرسالة وعهود الراشدين، ولكنه كاد ينسى نتيجة لانصراف أسلافه إلى أمور الدنيا بعيداً عن الالتزام بالمبادئ والتعاليم الإسلامية.

والمبدأ الثاني هو ما يراه عمر من حق أبناء بقية الأمصار أو الأقاليم الإسلامية في إبداء رأيهم فيه كخليفة قبولاً أو رفضاً، ويترتب على هذا المبدأ تقرير أن الخليفة الحق هو الذي تحظى خلافته بقبول جميع أبناء الأمصار الإسلامية، أو القسم الأكبر منهم، وليس المقصود هنا عامة الناس، بل أصحاب الحل والعقد، وهم أولئك الذين لا تعبر آراؤهم عن وجهات نظرهم هم فحسب، بل أيضاً تعكس رغبات ومواقف الذين يتبعونهم ويثقون فيهم.

وكأني بعمر بن عبد العزيز هنا يريد أن يشير من طرف خفي إلى المقارنة بين الخلفاء الراشدين من ناحية، وخلفاء الدولة الأموية من ناحية ثانية، فخلافة كل من الراشدين، أو ثلاثة منهم، كانت محل إجماع من المسلمين، وذلك على عكس ما كان عليه الحال مع خلفاء الدولة الأموية إذ لم تحظ خلافة أي منهم بمثل هذا الإجماع، ابتداء من معاوية وحتى عبد الملك وولديه الوليد وسليمان.

وسر الإجماع على الراشدين يكمن في التزامهم الشديد بالقيم الإسلامية، وعدم انحراف أي منهم عن تعاليم الدين الإسلامي، أما الخلفاء الأمويون فقد ابتعدوا عن الخط الذي رسمه الراشدون، مما يجعل البون بين الصورتين كبيراً، وهذا البون الكبير هو ما عبر عنه عمر بن عبد العزيز في تعليقه على عبارة قالها هشام له قبل أن يبدأ خطبته الافتتاحية، وعبارة هشام قوله أثناء مبايعته لعمر: إنا لله وإنا إليه راجعون. أما تعليق عمر فهو قوله:

«نعم إنا لله حين صار بلي هذه الأمة أنا وأنت»(٢٨).

وفي المبدأ الثالث يقرر عمر بن عبد العزيز مبدأ المشاركة في المساءلة والمسئولية بين الإمام وأفراد الرعية، فالإمام الذي تجب طاعته هو الإمام العادل، أما الإمام الظالم فلا تحق طاعته على أحد، بمعنى أن مسئولية التمرد ضد الإمام الظالم لا تقع على عاتق الشخص المتمرد، بل على الإمام الظالم الذي يخضع للمساءلة والمحاسبة شأنه في ذلك شأن أفراد الرعية. وهذا المبدأ توضيح للنظرية الإسلامية القائلة بأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

هذه هي المبادئ التي تضمنتها الافتتاحية التي ألقاها عمر على الأرجح عقب البيعة الخاصة، أما الافتتاحية التي ألقاها عقب البيعة العامة فقد قال فيها، كما يذكر ابن الأثير(٢٩):

«أيها الناس من صحبنا فليصحبنا بخمس وإلا فلا يقربنا، يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها، ويعيننا على الخير بجهده، ويدلنا من الخير على ما نهتدي إليه، ولا يغتابن أحداً، ولا يعترض فيما لا يعنيه».

والمتأمل في هذه الافتتاحية يتضح له أن عمر بن عبد العزيز أراد بها أن تكون بداية صفحة جديدة أو تطور أساسي في تاريخ الدولة الأموية، وخاصة في الأسلوب الذي

---

(٢٨) الذهبي، سير أعلام النبلاء جـ٥ ص ١٢٦.

(٢٩) الكامل في التاريخ جـ٥ ص ٦٣، وانظر أيضاً ابن كثير، البداية والنهاية جـ٩ ص ١٩٨.

ستدار به الدولة والرجال الذين سيتاح لهم أن يتعاونوا مع الخليفة في هذه المهمة، وذلك من خلال الضوابط الخمسة التي عددها عمر في هذه الافتتاحية.

الضابط الأول، أن يجعل الرجل من نفسه واسطة خير ومساعداً للضعفاء، ومعيناً في إيصال الحق لذويه الذين قد تقف بهم قدراتهم المحدودة دون الوصول إلى باب الخليفة لرفع ظلاماتهم.

الضابط الثاني، أن يبذل الرجل قصاراه في إعانة الخليفة على فعل الخير، ومؤازرته في الوقوف إلى جانب الحق والمعروف.

الضابط الثالث، أن يتحلى الرجل بالقدرة على اكتشاف ميادين الخير، وتوجيه اهتمام الخليفة إليها.

الضابط الرابع، ألا يكون الرجل جليس سوء، كل همه اغتياب الآخرين والنيل منهم والحط من شأنهم ظاناً أنه بذلك يسلك طريق التقرب إلى قلب الخليفة وعقله.

الضابط الخامس، أن يبتعد عن التدخل في الأمور التي لا تعنيه.

وكان عمر بن عبد العزيز حاسماً في جعله هذه الضوابط مجتمعة أساساً في انتقاء الرجال الذين سيتاح لهم أن يتعاونوا معه، وخاصة أولئك الذين كانوا سيشكلون ما يمكن أن نسميه ديوان الخلافة الأموية.

وهذه الضوابط تعتبر في الحقيقة خطوة كبيرة على طريق إصلاح جهاز الحكم في الخلافة الأموية، وهو الجهاز الذي عانى كثيراً من انحرافات المقربين إلى الخليفة في العهود السابقة. ومن هنا تتضح قيمة هذه الخطوة الإصلاحية، واعتبارها تطوراً كبيراً في أسلوب الحكم في الدولة الأموية.

وليس هذا غريباً على عمر بن عبد العزيز فقد سجل له التاريخ أنه حينما قدم المدينة والياً(٣٠) دعا بعشرة من مواطنيها، كل منهم مشهود له بالخير والصلاح وحدثهم

---

(٣٠) أسند الوليد بن عبد الملك ولاية المدينة إلى عمر بن عبد العزيز من آخر سنة ٨٦هـ إلى سنة ٩٣هـ. انظر تاريخ خليفة بن خياط جـ١ ص ٣١٥.

قائلاً[٣١] :

«إني دعوتكم لأمر تؤجرون فيه، ونكون فيه أعواناً على الحق، ما أريد أن أقطع أمراً إلا برأيكم، أو برأي من حضر منكم، فإن رأيتم أحداً يتعدى أو بلغكم عن عامل ظلامه، فأحرج بالله على من بلغه ذلك إلا أبلغني».

ويبدو أن الرجل أراد أن يجعل من إدارته للدولة الأموية صورة مكبرة ومنقحة لإدارته السابقة للمدينة المنورة، وبإجماع المؤرخين فإن فترة ولايته على المدينة كانت أفضل فترة عاشتها في ظل الدولة الأموية.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن مبادرة عمر بن عبد العزيز في أول عهده إلى وضع هذه الضوابط الصارمة للرجال الذين كانوا سيساعدونه في تحمل المسئولية جاءت خطوة موفقة للغاية، وذلك لأن الكثير من الانحرافات والتجاوزات التي وقعت فيها الدولة الأموية أو الخلفاء الأمويون تمت بإيعاز من هذا أو ذاك من المقربين إلى الخليفة.

ومن الناحية العملية، فإن التاريخ سجل لعمر بن عبد العزيز أنه قد وضع المبادئ والضوابط التي اشتملت عليها افتتاحياته موضع التنفيذ، بادئاً بنفسه وأهل بيته، فأبناء الأسرة الأموية. وقد انعكست الشخصية المتميزة لعمر بن عبد العزيز وبقوة على كل مظاهر الحياة في الدولة الأموية، فلا غرو أن تحدث عنه معظم المؤرخين بوصفه خامس الراشدين.

٧ـ وصيتا عمر بن عبد العزيز :

حفظ التاريخ لعمر بن عبد العزيز وصيتين، الأولى وصية خاصة وجهها عمر بن عبد العزيز إلى يزيد بن عبد الملك، ولي عهده والخليفة من بعده، والثانية وصية عامة خاطب فيها المسلمين عامة، وقد اتخذت الوصية الخاصة شكل رسالة وجهها عمر إلى ولي عهده يزيد، على حين اتخذت وصيته العامة شكل خطبة كانت آخر ما خاطب به عمر المسلمين عامة من على منبر الجامع الأموي بدمشق، والمصادر التي بين أيدينا لا تشير إلى

---

(٣١) الذهبي، سير أعلام النبلاء جـ٥ ص ١١٨.

الترتيب الزمني بين الوصيتين، ولكن من الممكن القول بأن الوصية الخاصة، والتي يبدو أنه كتبها وهو في مرضه الأخير، جاءت تالية للوصية العامة.

مهما يكن من أمر، في الوصية الخاصة قال عمر بن عبد العزيز(٣٢) :

«أما بعد، فإني كتبت إليك وأنا دنف من وجعي، وقد علمت أني مسئول عما وليت، يحاسبني عليك مليك الدنيا والآخرة، ولست أستطيع أن أخفي عليه من عملي شيئاً ..... فإن يرض عني الرحيم فقد أفلحت ونجوت من الهوان الطويل، وإن سخط على فياويح نفسي إلام أصير؟ أسأل الله الذي لا إله إلا هو أن يجيرني من النار برحمته، وأن يمن على برضوانه والجنة.

وعليك بتقوى الله، والرعية، فإنك لن تبقى بعدي إلا قليلاً حتى تلحق باللطيف الخبير والسلام».

أما الوصية العامة، أو آخر خطبة خطبها عمر بن عبد العزيز، فقد قال فيها بعد حمد الله والثناء عليه(٣٣) :

«أما بعد، فإنكم لم تخلقوا عبثاً، ولم تتركوا سدى، وإن لكم معادا ينزل الله فيه للحكم فيكم والفصل بينكم، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله تعالى وحرم جنة عرضها السموات والأرض.

ألم تعلموا أنه لا يأمن غداً إلا من حذر اليوم الآخر وخافه، وباع فانيا بباق، ونافذا بما لا نفاذ له، وقليلاً بكثير، وخوفا بأمان، ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين وسيكون من بعدكم للباقين، كذلك حتى ترد إلى خير الوارثين. ثم إنكم في كل يوم تشيعون غادياً ورائحاً إلى الله لا يرجع، قد قضى نحبه حتى تغيبوه في صدع من الأرض، في بطن صدع غير موسد ولا ممهد، قد فارق الأحباب، وواجه التراب والحساب، فهو مرتهن بعمله

---

(٣٢) ابن الجوزي، سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٢٧٧، وتوجد وصية موجزة لدى كل من ابن الأثير (جـ٥ ص ٦٧) وابن خلدون جـ٣ ص ١٦٥).

(٣٣) ابن كثير جـ٩ ص ١٩٩.

غني عما ترك فقير لما قدم، فاتقوا الله قبل القضاء، وراقبوه قبل نزول الموت بكم».

وكما هو واضح فإن وصيتي عمر بن عبد العزيز تحملان صبغة دينية قوية، إذ أنهما تركزان على العلاقة بين الإنسان وربه، والثواب والعقاب، وهذه الصبغة تتفق تمام الاتفاق مع شخصية عمر بن عبد العزيز، وهي الشخصية التي برزت بوضوح أيضاً في افتتاحيتيه اللتين تحدثنا عنهما سلفاً.

٨ ـ نصوص أخيرة :

توفي عمر بن عبد العزيز في شهر رجب من السنة الأولى بعد المائة، وعلى مدى الفترة التالية حتى سقوط الدولة الأموية في سنة ١٣٢هـ يجد الباحث قلة ظاهرة في الافتتاحيات والوصايا مع كثرة الرجال الذين تعاقبوا على منصب الخلافة(٣٤)، وذلك على عكس الفترة السابقة.

وعلى مدى الفترة المشار إليها أمدتنا المصادر التي رجعت إليها بنصوص ثلاثة، أولها كتاب بعث به يزيد بن عبد الملك، أول عهده بالخلافة، إلى العمال على الأقاليم، وثانيها كلمات وجهها هشام في مرضه الأخير إلى أولاده، وثالثها خطبة قالها يزيد بن الوليد عقب قتل الخليفة الوليد بن يزيد في جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة.

ومن حيث انطباق التسمية، افتتاحية أو وصية، بالنسبة لهذه النصوص الثلاثة، فإنه يمكن القول:بأن التاريخ لم يسجل ليزيد بن عبد الملك أنه ألقى خطبة، عامة أو خاصة، افتتح بها عهده، غير أن الكتاب الذي بعث به إلى أوائل عهده إلى العمال على الأمصار يمكن اعتباره افتتاحية، لأنه حدد سياسة يزيد في قضية بالغة الأهمية بالنسبة للدولة الأموية، تلك هي قضية الخراج، أهم الموارد المالية، وسياسة يزيد في هذه الناحية تخالف تمام المخالفة السياسية التي سار عليها سلفه عمر بن عبد العزيز.

---

(٣٤) تعاقب على منصب الخلافة الأموية بعد عمر بن عبد العزيز خمسة رجال هم يزيد بن عبد الملك (١٠١ ـ ١٠٥) وهشام بن عبد الملك (١٠٥ ـ ١٢٥) والوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥ ـ ١٢٦) ويزيد بن الوليد بن عبد الملك (١٢٦) ومروان بن محمد (١٢٧ ـ ١٣٢) ويمكن أن يضاف إليهم سادس هو ابراهيم بن الوليد ابن عبد الملك الذي تولى الخلافة لفترة قصيرة قبل مروان بن محمد.

أما الكلمات التي وجهها هشام إلى أولاده فإنها لا تحمل معنى الوصية، إنها تقرير للواقع الذي كان يعيشه هشام آنذاك، فهو رجل يعيش الساعات الأخيرة من عمره، الساعات التي تقف به على عتبة الموت. هذا على حين أن النص الثالث، وهو خطبة يزيد ابن الوليد، تنطبق عليه تسمية الافتتاحية تمام الانطباق، وذلك لأنه بهذه الخطبة افتتح عهده وحدد سياسته.

* * *

مهما يكن من أمر، فقد ذكر ابن عبد ربه⁽٣٥⁾ عن يزيد بن عبد الملك أنه في بداية عهده بعث إلى عمال عمر بن عبد العزيز بكتاب قال فيه:

«أما بعد، فإن عمر كان مغروراً، غررتموه أنتم وأصحابكم، وقد رأيت كتبكم إليه في انكسار الخراج والضريبة، فإذا أتاكم كتابي هذا فدعوا ما كنتم تعرفون من عهده، وأعيدوا الناس إلى طبقتهم الأولى (أي الوضع السابق) أخصبوا أم أجدبوا، أحبوا أم كرهوا، حيوا أم ماتوا والسلام».

وليس لنا من تعليق على هذا الكتاب إلا القول بأنه يتحدث عن جانب من الجوانب العديدة التي انحرف بها يزيد عن سياسة سلفه عمر بن عبد العزيز، الذي يعتبر بكل المقاييس خامس الراشدين.

وينتقل بنا الزمن حوالي ربع قرن، وعلى وجه التحديد إلى شهر ربيع الثاني من سنة خمس وعشرين بعد المائة، في التاريخ المذكور كان هشام بن عبد الملك الذي أمضى في الخلافة قرابة عشرين سنة ـ كان هذا الخليفة يعاني سكرات الموت في مرضه الأخير، وقد سجل له التاريخ أنه قال آنذاك موجهاً حديثه إلى أولاده الباكين حول سريره⁽٣٦⁾ :

«جاد لكم هشام بالدنيا وجدتم عليه بالبكاء، وترك لكم ما جمع وتركتم له ما

---

(٣٥) العقد الفريد جـ٢ ص ٢٨١.

(٣٦) ابن كثير جـ٩ ص ٣٥٤.

كسب، ما أسوأ منقلب هشام إن لم يغفر الله له».

بعد وفاة هشام شهدت الدولة الأموية أحداثاً خطيرة كان أبرزها الانقسام الذي منيت به الأسرة المروانية، ونتيجة لهذا الانقسام اندلعت ثورة ضد الوليد بن يزيد قادها يزيد بن الوليد بن عبد الملك، وقد نجح الثائرون في قتل الخليفة، وذلك في جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة. بعد ذلك خطب يزيد الناس فقال بعد حمد الله والثناء عليه(٣٧):

«أما بعد، أيها الناس إني والله ما خرجت أشراً ولا بطراً، ولا حرصاً على الدنيا، ولا رغبة في الملك، وما بي إطراء نفسي، ولا تزكية عملي، وإني لظلوم لنفسي إن لم يرحمني ربي، ولكني خرجت غضباً لله ودينه، وداعياً إلى كتابه وسنة نبيه حين درست معالم الهدى، وطفئ نور أهل التقوى، وظهر الجبار العنيد، المستحل الحرمة، والراكب البدعة، والمغير السنة، فلما رأيت ذلك أشفقت إذ غشيتكم ظلمة لا تقلع عنكم على كثرة من ذنوبكم وقسوة من قلوبكم، وأشفقت أن يدعو كثيراً من الناس إلى ما هو عليه، فيجيبه من أجابه منكم، فاستخرت الله في أمري، وسألته ألا يكلني إلى نفسي، ودعوت إلى ذلك من أجابني من أهلي وأهل ولايتي، وهو ابن عمي في نسبي وكفيّي في حسبي، فأراح الله منه العباد وطهر منه البلاد، ولاية من الله وعوناً بلا حول منا ولا قوة، ولكن بحول الله وقوته وولايته وعونه.

أيها الناس، إن لكم عندي إن وليت أموركم ألا أضع لبنة على لبنة، ولا حجراً على حجر، ولا أنقل مالاً من بلد حتى أسد ثغرة وأقسم بين مسالحه ما يقوون به. فإن فضل فضل رددته إلى البلد الذي يليه وهو أحوج إليه حتى تستقيم المعيشة بين المسلمين وتكونوا فيها سواء. ولا أجمر بعوثكم فتفتنتوا ويفتتن أهاليكم. فإن أردتم بيعتي على الذي بذلت لكم فأنا لكم به، وإن ملت فلا بيعة لي عليكم، وإن أردتم أحداً هو أقوى عليها مني فأردتم بيعته فأنا أول من بايع ودخل في طاعته. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي

---

(٣٧) تاريخ خليفة بن خياط جـ٢ ص ٣٨٢ ـ ٣٨٣. ابن الأثير جـ٥ ص ٢٩١ ـ ٢٩٢. الذهبي سير أعلام النبلاء جـ٥ ص ٣٧٥.

ولكم (٣٨) :

والباحث يقف أمام هذه الافتتاحية وقفة فيها شيء من التأمل، وذلك لأننا في حالة التسليم بصدق يزيد بن الوليد، نجد أن هذه الافتتاحية تؤكد أن الانحرافات التي ظهرت من سلفه الوليد بن يزيد كانت موضع رفض واستنكار من عدد كبير من أبناء الأسرة الأموية، وقد تجسد هذا الموقف في شكل ثورة عاتية أسقطت الخليفة يزيد وما كان يمثله من انحراف وبعد عن الدين الإسلامي.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الافتتاحية في قسمها الأخير تبرز الرغبة الصادقة لدى يزيد في أن يبدأ صفحة جديدة في تاريخ الدولة الأموية، صفحة أساسها العودة إلى قيم الإسلام ومثله في الحكم والسياسة، صفحة تعيد إلى الأذهان المحاولة الناجحة التي ارتبطت بالخليفة عمر بن عبد العزيز.

هذه هي افتتاحية يزيد في مراميها وأهدافها، ولكن الواقع التاريخي يقول بأن المنية لم تمهله حتى يضع افتتاحيته موضع التنفيذ، فقد توفي في ذي الحجة من سنة ست وعشرين ومائة، بعد خلافة قصيرة، عمرت فقط ستة أشهر.

* * *

وبعد: فهذه هي افتتاحيات ووصايا القسم الأكبر، أو الأهم، من الخلفاء الأمويين، وهذه الافتتاحيات والوصايا بالغة الأهمية من الناحية التاريخية، وذلك لأنها تساعدنا مساعدة كبيرة في التعرف على شخصيات الرجال الذين قالوها، كما أنها تقدم لنا أحد الأسس في الحكم عليهم وعلى منجزاتهم.

وإضافة إلى ذلك فإن هذه الافتتاحيات والوصايا تكاد تقدم سجلاً وثائقياً لبعض مراحل تاريخ الدولة الأموية.

---

(٣٨) وردت هذه الافتتاحية أيضاً لدى الجاحظ (البيان والتبيين جـ٢ ص ١٤١) وابن عبد ربه (العقد الفريد جـ٤ ص ٩٦)، وابن قتيبة (عيون الأخبار جـ٢ ص ٢٤٨).

• أهم مصادر البحث •

١ ـ **ابن أبي الحديد، عز الدين أبو حامد بن هبة الله.**

شرح نهج البلاغة، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٣٨٥ ـ ١٩٦٥م.

٢ ـ **ابن الأثير، علي بن محمد بن عبد الكريم.**

الكامل في التاريخ، طبعة دار صادر، بيروت ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٥م.

٣ ـ **ابن اعثم، أبو محمد أحمد الكوفي.**

كتاب الفتوح، حيدر آباد ١٣٨٨هـ، ١٩٦٨م.

٤ ـ **ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد.**

أ ـ سيرة عمر بن عبد العزيز، القاهرة، مطبعة المؤيد ١٣٣١هـ ـ ١٩١٢م.

ب ـ مناقب عمر بن الخطاب، القاهرة مطبعة محمد علي صبيح.

٥ ـ **ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد.**

كتاب العبر، دار الكتاب، بيروت ١٩٥٧م.

٦ ـ **ابن خلكان، أحمد بن محمد بن ابراهيم.**

وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، بيروت.

٧ ـ **ابن سعد، محمد**

الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت ١٩٥٨.

٨ ـ **ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي.**

العقد الفريد، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٤٤.

٩ ـ **ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم الدينوري.**

أ ـ الإمامة والسياسة القاهرة مطبعة النيل ١٣٢٢هـ ـ ١٩٠٤م.

ب ـ عيون الأخبار، مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٤٣هـ ـ ١٩٢٥م.

جـ ـ المعارف، تحقيق ثروت عكاشة، دار المعارف القاهرة ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٩م.

١٠ ـ **ابن كثير، اسماعيل بن عمر.**

البداية والنهاية، بيروت ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م.

١١ ـ **الجاحظ، أبو عمر وعثمان بن بحر**

البيان والتبيين، لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة سنة ١٣٨٠هـ ـ ١٩٣٥م.

١٢ ـ **خليفة بن خياط**
تاريخ خليفة بن خياط، العراق، مطبعة الآداب ـ النجف ـ الأشرف ١٣٨٦ هـ ـ ١٩٦٧ م.

١٣ ـ **الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد**
سير أعلام النبلاء مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م.

١٤ ـ **الزبير بن بكار**
الأخبار الموفقيات، بغداد، إحياء التراث الإسلامي ١٣٩٢ هـ ـ ١٩٧٢ م.

١٥ ـ **السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر**
تاريخ الخلفاء، القاهرة ١٣٥١ هـ ـ ١٩٣٢.

١٦ ـ **الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير.**
تاريخ الرسل والملوك، طبعة دار الفكر، بيروت ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م.

١٧ ـ **القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي**
صبح الأعشى، الطبعة الأميرية، القاهرة.

١٨ ـ **محمد بن حبيب**
المحبر، بيروت، المكتب التجاري للطباعة والنشر.

١٩ ـ **المسعودي، علي بن الحسين بن علي**
مروج الذهب، بيروت دار الأندلس ١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٥ م.

٢٠ ـ **اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب.**
تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت ١٣٧٩ هـ ـ ١٩٦٠ م.

• إذا كانت دعوة المسلمين تسيء إلى بعضهم فلن يتخاذل المسلمون ولن يتراجعوا في سبيل نصرة دينهم وتوحيد كلمتهم.

«فيصل بن عبد العزيز»